مجلة الجامعة المغاربية

العدد الأول ـ السنة الثانية ـ 2007 م

هجرة بعض العلماء الليبيين إلى تونس في العهد الحفصي
الأسباب والنتائج

د. عبدالله انبية المعلول
كلية الآداب – جامعة الجبل الغربي ليبيا

مؤسس الدولة الحفصية هو أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي [1] الذي أعلن انفصاله عن الدولة في المغرب الأقصى سنة (626 هـ - 1228 م) مستقلا بحكم المغرب الأدنى ، والذي كان يسمى عند المؤرخين المسلمين بإقليم إفريقية، وكان يشمل مدنا كثيرة أهمها : (تونس ، طرابلس ، بجاية ، قسنطينة) [2] .

وكان سبب انفصاله عن الدولة الأم هو النزاع الدموي الطويل بين أمراء الأسرة الحاكمة في مدينة مراكش عاصمة الدولة الموحدية للاستيلاء على الحكم.

وقد استطاع الأمير أبو زكريا أن ينهض بالدولة في فترة وجيزة بعد أن قضى على جميع خصومه ، ووسع ملكه فاستولى في سنة (626 هـ - 1228 م) على

(1) يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني ، مؤسس الدولة الحفصية ، قضى على جميع الثورات في عهده وخدم العلم والعلماء ، توفي ببونة سنة (647 هـ - 1249 م) .
خير الدين الزركلي : الأعلام ، بيروت : دار العلم للملايين . ط/ 5 1980 م . ج 8 ص 155 .
(2) عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1968 . ج 6 .ص 594 .
روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، لبنان : دار الغرب الإسلامي ، 1988 ، ج 1 ، ص 29 .

مدن قسنطينة ، وبجاية ، وتلمسان[1] ، وأنجز الكثير من المشاريع العمرانية ، التي ما يزال بعضها قائما حتى الآن في مدينة تونس ، مثل : جامع القصبة ، وسوق العطارين ، والمدرسة الشماعية[2] ، وفتح أبواب مدنه للمهاجرين الأندلسيين ، فتأثرت حضارة إفريقية بحضارة الأندلس ، وقد بلغ تأثير تلك الحضارة مداه في عهد ابنه أبي عبد الله المستنصر الحفصي[3] الذي يعتبر من أعظم بناة هذه الأسرة ، حيث كان بلاطه مزدحما بالعلماء والشعراء من جميع مدن المغرب الإسلامي والأندلس ، وشهدت الدولة في عهده استقرارا لا مثيل له[4] .

وفي ذلك العهد ازدهرت العلاقات التجارية بين مدن الدولة الحفصية والمدن المطلة على البحر المتوسط ، وبسبب عوائد تلك التجارة أصبحت الدولة الحفصية مدينة حضارية قوية وذات سيادة ، استطاعت حمل لواء الدفاع عن الإسلام مدة من الزمن ، وكانت بدايتها سنة (626 هـ - 1228 م) وزالت على أيدي الأتراك العثمانيين سنة (981 هـ - 1573 م)[5] .

(1) ابن خلدون : مصدر سابق ج 6 ص 594 وما بعدها .
(2) أحمد بن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية 1976 ، ج 1 ، ص 198 وما بعدها . محمد بن إبراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تح : محمد ماضور ، تونس : المكتبة العتيقة ط/2 ص 27 وما بعدها.
(3) محمد بن يحيى بن عبد الواحد الحفصي ، أمير المؤمنين المستنصر بالله من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، كان شجاعا حازما خبيرا بسياسة الملك ، غزاه ملك فرنسا لويس التاسع عشر ، فظفر به صاحب الترجمة .ولد سنة (25 هـ - 1228 م) وتوفي بتونس سنة (675 هـ - 1277 م) .
الزركلي : مصدر سابق ، ج 7 ، ص 138 .
(4) روبار برنشفك : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 72 .
(5) المصدر نفسه : ج 1 ، ص 73 ، وما بعدها .

الحالة السياسية لمدينة طرابلس في العهد الحفصي :

لقد عاشت مدن إفريقية خلال الدولة الحفصية فترات من الاضطراب السياسي ، كانت البلاد فيها مسرحا للكثير من الثورات والفتن الداخلية والتدخل الخارجي ، مما ساعد على تدهور الوضع السياسي في المنطقة ، ونتيجة لهذا الوضع أهملت الزراعة والصناعة فتدهور التبادل التجاري بين المدن المغاربية ، فعم القحط ، وانتشرت الأوبئة والمجاعات في بعض الأحيان .

أما مدينة طرابلس فلم تنعم بالأمن والاستقرار طويلا ؛ لأن سلطان الحفصيين عليها تلاشى بعد وقت قصير ، فعاشت المدينة تحت حكم مستقل لا يخضع للحفصيين إلا اسميا ، وذلك في عهد أسرة بني ثابت[1] التي كانت البلاد في عهدها مسرحا للكثير من الفتن والثورات المتواصلة التي أرهقت البلاد والعباد ، وأصبحت مدينة طرابلس تحت حكمهم تتأرجح بين التبعية والاستقلال ، فأحيانا يستقلون بها ، وتارة أخرى يقدمون طاعتهم لسلطانها ، ويدخلون تحت لواء الدولة الحفصية .

وتتحدث المصادر التاريخية عن حملات كثيرة قام بها الحفصيون على مدينة طرابلس ، إما لتغيير حاكم أو لجباية الضرائب ، أو لمحاولة الاحتفاظ بها أثناء تعرضها للخطر[2] .

(1) بنو ثابت : عرب وشاحيون من بني سليم من الأسر الطرابلسية التي كانت تسكن المدينة استقلوا بحكم طرابلس نحو (تسع وسبعين سنة) أول حاكم منهم عليها هو : ثابت بن محمد سنة (724 هـ) وآخر حاكم هو يحيى بن أبي بكر ، عزل عنها سنة (803 هـ) .
الطاهر الزاوي ، ولاة طرابلس ، بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ط/1 ، 1970 ، ص 124 ، 132 .
الطاهر الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لندن : دارف المحدودة ، ط/3 ، 1985 ، ص 346 .

(2) الطاهر الزاوي : ولاة طرابلس ، ص 130 .
خليفة محمد التليسي ، حكاية مدينة : الدار العربية للكتاب 1974 ، ص 58 .

أما نفوذ الحفصيين على مدن الدواخل فقد كان ضعيفا ، وكانت تلك الجهات مستقلة إلى حد ما تحت سيطرة المشايخ مثل :

أ- مشيخة بني سالم وقاعدتهم مدينة مصراتة .

ب- مشيخة بني زيان وقاعدتهم قصور سوف الجين[1] .

ج- مشيخة بني تليس وقاعدتهم مدينة بني وليد .

وما كادت مدينة طرابلس تهنأ تحت سلطة الحفصيين حتى شملتها ثورة الدعي ابن أبي عمارة المسيلي[2] الذي ادعى أنه الفاطمي المنتظر واستطاع أن يضم إليه قبيلة بني ذياب[3] الطرابلسية وأعرابا آخرين من بني الكعوب[4] الأقوياء النفوذ ، فحاصر بهم مدينة طرابلس ، فامتنعت عليه فاتجه إلى ناحية جنزور وجهاتها من قبيلة هوارة فأوقع بهم ، ثم سار في تلك النواحي ، واستولى على نواحي الماية وزوارة ، وفرض عليهم الضرائب ، ثم اتجه إلى جبل نفوسة وأغرم قبائلها ، وسرعان ما بايعه الجنوب التونسي كله حتى استطاع بذلك الجمع الكبير احتلال مدينة تونس عاصمة الدولة الحفصية[5] ، وقد أثارت هذه الهزيمة اضطرابا شديدا في مدينة طرابلس وبقية مدن إفريقية . إلا أن خدعة أبي عمارة لم تدم طويلا إذ انقلب عليه الأعراب الذين نصبوه

---

(1) سوف الجين بالسين المهملة والجيم المشددة ، اسم بربري لواد من أكبر وديان طرابلس يأتي من الجنوب ويصب في تاورغاء أرضه خصبة وفيها زراعة القمح .
الطاهر الزاوي : معجم البلدان الليبية ، طرابلس : مكتبة النور ، 1986 ، ص 344 .

(2) ابن أبي عمارة . أحمد بن مرزوق المسيلي ، متسلط على إفريقية أصله من بجاية ، ادعى كذبا أنه الفضل بن الواثق الحفصي ، واستولى على كامل بلد إفريقية لكن أمره اكتشف وقتل سنة (683 هـ - 1284 م) .
الزركلي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص256 .

(3) بنو ذباب : يرجع نسبهم إلى قبيلة بني سليم المشهورة وأرضهم من طرابلس إلى قابس ، عبد الحكيم الوائلي : موسوعة قبائل العرب – عمان : دار أسامة ، ط/1 ، 2002 ، ج 2 ، ص598 .

(4) الكعوب : إحدى قبائل بني سليم الكبيرة وتمتد ديارهم من خليج سرت في ليبيا إلى الحدود التونسية . وينتشرون في ترهونة والجفرة وبني وليد وضواحي طرابلس .
المصدر نفسه – ج 5 ، ص 1860 .

(5) ابن خلدون : مصدر سابق ، ج 6 ، ص689 وما بعدها .

وبايعوا أحد أبناء البيت الحفصي ، فدخل تونس وقبض على الدعي ، وقتله بعد أن اعترف بنسبه الصحيح[1] .

ومن أمثلة الثورات التي حدثت في طرابلس ثورة أبي سانوسة [2] التي حدثت في الدواخل سنة (833 هـ - 1424) ، وثورة بني غراب[3] على الحفصيين سنة (875 هـ - 1470 م) الذين طردوا والي طرابلس الحفصي ، وهو أبو بكر بن عثمان[4] حين حاول الاستقلال بمدينة طرابلس عن الدولة الحفصية ، والذي قبض عليه الأهالي وسلموه لسلطان تونس فقتله سنة (893 هـ - 1487 م)[5] .

أما العدوان الخارجي فقد أخذت مدينة طرابلس نصيبها منه حين تعرضت لهجمات الجنويين نسبة إلى مدينة (جنوة) الإيطالية سنة (755 هـ - 1354 م) ، حيث استطاعوا احتلال المدينة ، ومكثوا بها خمسة أشهر تقريبا ، استولوا فيها على الكثير من أموال ومتاع أهل المدينة ، ونشروا الفوضى حتى فر والي المدينة وأتباعه إلى الضواحي ، واستمرت المدينة على هذا الحال حتى أخرجهم منها والي مدينة قابس أحمد بن مكي[6] بالفدية ، وكان مقدارها (خمسين ألف مثقال من الذهب) ، فخرجوا منها بعد ما نشروا الخوف والذعر بين أهلها . واستمر حكم أسرة بني ثابت حوالي تسع وسبعين سنة .

---

(1) روبار برنشفك ، مرجع سابق ج 1 ص 116 وما بعدها .
(2) متصوف من أهل الدواخل قام بثورة ضد السلطة في طرابلس . قتل سنة (833 هـ - 1454 م) . إتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 م . ترجمة : خليفة التليسي ، الدار العربية للكتاب 1991 ، ص 146 .
(3) بنو غراب : فخذ من الحساونة إحدى قبائل المرابطين ، وقيل من بني سليم العدنانية بالديار الليبية . عبد الحكيم الوائلي : مصدر سابق ، ج 4 ، ص 1539 .
(4) والي طرابلس من قبل الدولة الحفصية سنة (858 هـ - 1454 م) اشتهر بالعدل بين الناس . الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا : لندن : دارف المحدودة ط/3 1985 م ، ص 357 .
(5) المصدر نفسه : ص 358 .
(6) كان أحمد مكي واليا على مدينة قابس ، أخرج النصارى من مدينة طرابلس فملكها واستولى عليها إلى أن توفي سنة (766 هـ - 1364 م) . الطاهر الزاوي : ولاة طرابلس ص 127 .

ومن ولاة طرابلس المشهورين الشيخ عبد الله بن شرف[1] ، وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح حتى سمي بالمرابط ، وفي أيامه حدث الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس ، وكان ذلك سنة (916 هـ - 1510 م) حيث قامت إسبانيا بمهاجمة المدينة، وحين بلغت أخبار هذه الغزوة الأهالي فر أكثرهم إلى مدن الدواخل مثل غريان ومسلاتة وغيرها ، وحين نزل أفراد الأسطول للمدينة استبسل الطرابلسيون في الدفاع عن مدينتهم حتى بلغ عدد القتلى أكثر من خمسة آلاف قتيل وعدد الأسرى أكثر من ستة آلاف من أهل المدينة ، وتحصن عدد كبير من الأهالي بالجامع الكبير فقتل منهم نحو ألفين بين رجال ونساء ، حتى لم يبق موقع قدم بدون جثة شهيد ، ولكثرة القتلى ألقيت جثثهم في صهاريج الجوامع وفي البحر وأحرق بعضها[2] .

وقد أدى الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس الغرب إلى تناقص رهيب في عدد السكان ، فبالإضافة إلى العدد الكبير من القتلى فإن الكثير من الباقين على قيد الحياة قد لجأوا إلى العرب المقيمين بالضواحي .

وكان من نتيجة تلك الهجمة الصليبية على طرابلس أن عم المدينة الخراب والفقر ، مما أدى إلى تعطيل النشاط الزراعي ، والتجاري ، والصناعي ، مما انعكس سلبا على حالة البلاد الأمنية والاقتصادية [3] .

واستمرت مقاومة الطرابلسيين للإسبان حتى سنة (942 هـ - 1535 م) عندما تنازل الإسبان عن مدينة طرابلس لفرسان (القديس يوحنا) . واستمر جهاد

---

(1) الشيخ عبد الله بن شرف المرابط انتخبه الطرابلسيون واليا على طرابلس سنة (898 هـ - 1493 م) كان رجلا يميل إلى العبادة والزهد فلم يهتم بتحصين البلاد وتقوية أبراجها وأسوارها حتى أصبحت عرضة لطمع الأعداء وهو ما حدث فعلا .

الطاهر الزاوي : ولاة طرابلس ص 142 .

(2) الطاهر الزاوي : ولاة طرابلس ص 143 .

(3) اتوري روسي : مرجع سابق ص 179 .

الطرابلسيين للغزاة حتى جاء الأتراك بقيادة سنان باشا سنة (958 هـ - 1551 م) ، واستطاع طرد أولئك الغزاة بعد معارك طاحنة ، واستمر احتلال الإسبان وفرسان (القديس يوحنا) لطرابلس نحو اثنتين وأربعين سنة(1).

تلك بعض الأمثلة للحالة السياسية المضطربة التي عاشتها مدينة طرابلس وما حولها في العهد الحفصي ، وبسبب تلك الحالة اتجهت أنظار علماء مدينة طرابلس إلى مدينة تونس طلبا للأمن والحماية بسبب منعتها وقوتها ، وكان ذلك على شكل هجرات متتالية حظيت بها مدينة تونس على امتداد تاريخها الحفصي ، وسنتعرف في هذا البحث على أسباب تلك الهجرة ونتائجها على كلتا المدينتين طرابلس وتونس .

أسباب الهجرة :

كانت مدينة طرابلس في العهد الحفصي تزخر بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدثين ممن كانوا يرفعون رايات المعرفة ، ويحاربون الجهل ، وينشرون العلوم الإسلامية ، ويتولون الخطط الشرعية والوظائف المتنوعة ، مسجلين بذلك صفحات مشرقة في تاريخ إفريقية وحضارتها .

وبسبب منعة مدينة تونس وقوتها في عهد الدولة الحفصية ، كان لها النصيب الأكبر في استقبال العشرات من العلماء الطرابلسيين على امتداد تاريخها الحفصي.

من أهم أسباب الهجرة :

1. **الاضطراب السياسي :**

مر بنا بداية حالة الفوضى السياسية التي تعرضت لها مدينة طرابلس في العهد الحفصي ، حين كثرت الفتن والثورات ، مما أدى إلى انعدام الأمن واستقرار

(1) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا . ص 381 وما بعدها .

الأمور التي تتطلبها الحركة الفكرية ، إضافة إلى ما سببه العدوان الصليبي على المدينة من خراب يحمل كافة الوجوه ، مما أدى إلى هجرة كوكبة من خيرة علماء مدينة طرابلس إلى تونس وغيرها من مدن العالم الإسلامي.

2. فقر البلاد وقلة مواردها الطبيعية والتجارية :

يؤيد ذلك أن عبد الرحمن بن محمد التاجوري[1] وهو من علماء مدينة طرابلس حينما أقام بمكة زاره جماعة من أهل طرابلس الغرب ، فسألوه أن يدعو لهم فرفع يديه وقال : (اللهم خفف حساب أهل مصر) وكرروا سؤالهم فكرر جوابه ولما سئل عن ذلك قال (الذي يأكل الشعير ويلبس الصوف [يعني أهل طرابلس] لا يحتاج ، وإنما يحتاج إلى الدعاء أهل مصر وغيرهم من أهل الرفاهية) [2] .

3. انعدام الأمن :

من نتائج الحالة السياسية السابقة تعرضت مدينة طرابلس في هذه الفترة لحالة متدنية من الفوضى الاقتصادية ، بسبب تهديد القراصنة للطرق والموانئ البحرية ، مما جعل الأهالي عرضة للفقر والحاجة خصوصا عند احتلال الإسبان لطرابلس ، وتضييقهم على الأهالي بزيادة الضرائب على البضائع الواردة[3] .

كذلك من نتائج الحالة السياسية السابقة أن سيطر الأعراب على طرق القوافل التي تربط بين طرابلس وغيرها من المدن الهامة ، وبذلك أصبحت تلك

(1) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التاجوري : علامة الزمان في علم الميقات ، رحل إلى الأزهر وأخذ علومه من هناك، ثم دخل بلاد الروم ومنها إلى مكة وأقام بها . ألف رسالة في علم الميقات سماها (الدرر المتناثرات على ربع المقنطرات) ، توفي سنة (960 هـ - 1552 م) . الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ، القاهرة : مكتبة عيسى البابي الحلبي 1961 ، ص ص 273- 274 .

(2) النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، لندن : دارف المحدودة 1984 ص 198 ، 199 .

(3) اتوري روسي : مرجع سابق ص 158 ، 183 .

الطرق غير آمنة للقوافل التجارية وحركة الحجيج المستمرة ، وهذا ما أشار إليه الرحالة العبدري [1] حينما وصل تونس ، قاصدا مدينة طرابلس ، حيث وصف حالة الطرق التجارية المؤدية لها قائلا : (... لا يسلكها إلا مخاطر ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر ، قد استوى لديهم الصالح والطالح... اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا ....)[2] . نستنتج من هذه الشهادة أن سيادة العربان على طريق الحجاج والقوافل التجارية قد حرم مدينة طرابلس وغيرها من المدن الساحلية من نشاط اقتصادي كبير ، كان يقوم به أولئك الحجاج والتجار ، كما حرمها من حركة علمية مميزة ، كانت تعتمد على مرور العلماء بالمدن الليبية [3] .

4. تبعية طرابلس لغيرها من الدول :

لم تنعم طرابلس في العهد الحفصي وغيرها بالاستقلال المطلق ، بل كانت على الدوام تابعة لغيرها من الدول ، مما ترتب عليه حرمانها من أن تكون مركزا عاما يجذب العلماء و الفقهاء إليها من بقية المدن الكبيرة الأخرى .

5. عدم التشجيع من الولاة والحكام :

لم تذكر لنا المصادر المتوفرة لدينا أن الحكام الذين تتابعوا على حكم مدينة طرابلس في العهد الحفصي دعموا الحركة الثقافية ، أو قاموا بتشجيع العلماء والفقهاء ماديا أو معنويا ، بل على العكس أهملوا بناء المراكز الثقافية كالمدارس والمكتبات والمساجد إلا ما ندر ، ولم يهتموا حتى بالموجود منها .

---

(1) محمد بن محمد علي العبدري ، صاحب الرحلة المعروفة باسمه ، أصله من بلنسية ونسبته إلى بني عبد الدار ، كان من سكان بلدة (حاحة) في المغرب ، توجه منها حاجا سنة (688 هـ - 1289 م) فدخل إفريقية ومنها رحل للمشرق ، توفي سنة (700 هـ - 1399 م). الزركلي : مصدر سابق ج 7 ص 32 .

(2) أبو عبد الله محمد العبدري : الرحلة المغربية ، تح : محمد الفاسي ، الرباط ، جامعة محمد الخامس (د . ت) ص83.

(3) محمد يوسف ، إحسان عباس ، ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات . بنغازي ، دار النشر والتوزيع (د . ت) ص 151 .

إن موقف الحكام الذين تتابعوا على حكم مدينة طرابلس خصوصا في القرنين الثامن والتاسع الهجريين كان سلبيا إلى أبعد الحدود ، فلم نقرأ عن أي مجلس علمي انعقد في قصورهم . أو أنهم وقفوا أموالا على ذمة المؤسسات الثقافية القائمة تحت سيطرتهم ، ولذلك فإن التعليم في تلك الفترة كان قاصرا على مجهودات الأهالي الذاتية على الرغم من قلة مواردهم .

6. عدم وجود مراكز علمية كبيرة :

لم تذكر لنا المصادر التاريخية وجود أي مؤسسة علمية كبيرة في مدينة طرابلس في العهد الحفصي بسبب عدم اهتمام الولاة بالحركة العلمية ، مما شجع العلماء على الهجرة منها .

7. البحث عن الكتب النادرة والمخطوطات :

من أهم الحوافز التي دفعت العلماء الطرابلسيين للرحلة إلى تونس وتحمل مشاق السفر هو البحث عن نوادر المخطوطات ، والكتب النفيسة ، وإعادة نسخها ، وخير شاهد على ذلك ما نراه الآن من مخطوطات متشابهة ومختلفة في المكتبات بالمدن المغاربية .

أما أشهر علماء مدينة طرابلس الذين هاجروا إلى عاصمة الدولة الحفصية ، وأكدوا بذلك حقيقة التواصل الثقافي بين مدن إفريقية فهم :

1. عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي :

يرجع نسبه إلى أسرة بني عبد الغالب من مدينة مصراته الساحلية ، وللأسرة فروع في مدينة طرابلس ، وقد هاجر الكثير من أبنائها إلى تونس ، فكانت الأسرة وسيلة ربط وتواصل وتصاهر بين المدينتين ، ونبغ من تلك الأسرة

الكثير من الأعلام ، ومنهم هذا الشيخ الذي هاجر إلى تونس وجلس في مدارسها ومساجدها يدرس ويؤلف في الفقه والتفسير والتصوف والأدب الإسلامي ، توفي بالقيروان سنة (646 هـ - 1248 م) [1] .

2. عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الطرابلسي :

من علماء طرابلس المشهورين والذي رفع اسمها عاليا بين مدن إفريقة ، ونظرا لمكانته العلمية استعان به الحفصيون في القرن السابع الهجري عندما نقلوا التعليم من جامع القيروان إلى جامع الزيتونة [2] ، له تصانيف كثيرة منها: (العقيدة الجينية) ، و(حل الالتباس في الرد على نفاة القياس) و(كتاب في الحض على الجهاد) .

وله شعر جميل في الزهد منه قوله :

طرق السلامة والفلاح قناعة   ولزوم بيت بالتوحش مؤنس
يكفيه أنس أن يكون أنيسه   آي الكتاب ونوره في الحندس
وإذا رأت عيناه إنسانا أتى   فلينفرن نفور ظبي المكنس
ولقلما ينفك صاحب مقول   من عثرة أو زلة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل   حتى يراها في مقام المفلس

ومن أشهر أعمال هذا العالم الطرابلسي تأسيسه المدرسة المستنصرية بمدينة طرابلس في عهد السلطان المستنصر الحفصي سنة (658 هـ - 1262 م)

(1) النائب الأنصاري : مصدر سابق ص 145 وما بعدها .
(2) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر حتى التاسع عشر ، معهد الدراسات العربية العالمية : جامعة الدول العربية ، 1970 ص 118 .

والتـي تعتبـر أقـدم مدرسـة مالكيـة فـي إفريقيـة ، وبقـي بتـونس حتـى وفاتـه سـنة (684 هـ - 1285 م) [1] .

3. عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي :

من علماء مدينة طرابلس ، كان فقيها حافظا للمذهب ، عارفا بالمسائل ، بصيرا بالأحكـام ، أخـذ عـن جملـة مـن علمـاء عصـره ، ولـي قضـاء مدينـة طـرابلس والإمامة والخطابة بجامعها ، ثم نقل إلى مدينة تونس فتولى قضاءها سنة(657 هـ -1258 م) توفي بتونس سنة (660 هـ - 1261 م) [2] .

4. أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي

من علماء طـرابلس المشـهورين ، ولـد سـنة (609 هــ - 1212 م) بطـرابلس ، وعندما استنفد مـا عنـد أسـاتذته مـن علـوم ، هـاجر إلـى حاضـرة تـونس ، والتقـى بمشايخها ، وعمل بخزانة الكتب قيما عليها ، وكان بتلك الخزانة ثلاثون ألف سفر . له شعر جميل منه قوله :

آها نردد لـو تشـفي لنـا كربـا — وبالتعلات نحيى لو قضيت أربا
وبالأماني ينـال القلـب بغـيتـه — وقد تـحـقـق مـن معتـادها كـذبـا
يرتاح إن لاح برق من جهامتها — ومـا تـراءى لـه إلا وقـد ذهبـا
يسر أن مد يومـا حبـل منيتـه — ومـا تطـاول إلا جـد وانـقـضـبا

(1) أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني : الرحلة – تونس : المطبعة الرسمية 1958 ، ص 272 وما بعدها .
(2) الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا . ص 240 .

وكان مغامرا في حياته العلمية ، أوتي قوة في الذكاء وطلاقة في اللسان ، وتوسعا في العلوم ، شق طريقه بين علماء عصره حتى سمع فاحترم . توفي بتونس سنة (683 هـ - 1284 م) [1] .

5. أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري

أحد أعلام مدينة طرابلس العارفين بالتوثيق ، وعقد الشروط ، حافظ للآداب والتواريخ ، هاجر إلى تونس واستفاد منه أهلها ، التقى بالتيجاني [2] وصاحبه في رحلته إلى طرابلس مدة إقامته بها . ولد سنة (635 هـ - 1255 م) وتوفي سنة (708 هـ - 1308 م) [3] .

6. إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي

العالم الفقيه ، من أهل طرابلس ، امتاز بمعرفته لغريب اللغة ، وغريب الحديث ، وحسن التأويل ، إلى جانب فصاحته وطلاقة لسانه ، مما أهله لأن يكون خطيب مسجد القيروان عندما هاجر إليها ، ومنها انتقل إلى مدينة تونس ناشرا علمه بين طلابها ، وبقي بها إلى أن توفي سنة (704 هـ - 1304) [4] .

7. أبو موسى بن عمران الهواري الطرابلسي

كان عالما فقيها ، أخذ علومه من ابن أبي الدنيا وتولى القضاء بطرابلس أكثر

(1) رحلة التيجاني : مصدر سابق . ص ص 274 - 275 .
علي مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس . طرابلس : دار مكتبة الفكر ، ط/2 ، 1972 ، ص 75 وما بعدها .
محمد محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، بيروت : دار الكتاب اللبناني (1349 هـ) ص 190 .
(2) عبد الله بن محمد بن أحمد التونسي من أعيان الكتاب . ولد ونشأ بتونس ، عمل بديوان الإنشاء في البلاط الحفصي ، صاحب الأمير زكريا بن أحمد اللحياني سنة (706 هـ) في رحلته إلى طرابلس ، وفارقه بها ، وعاد إلى تونس سنة (708 هـ) ، دون كتاباته بها في رحلة سماها (رحلة التيجاني) ، له عدة تصانيف ، توفي بتونس سنة (721 هـ - 1321 م) .
الزركلي : مصدر سابق ج 4 ص 125 .
(3) رحلة التيجاني : مصدر سابق ، ص ص 308 .
الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ، ص ص 38 - 39 .
(4) النائب الأنصاري : مصدر سابق ص ص 158- 159 .

من ثلاثين سنة ، اشتهر بالعدل في أحكامه ، استدعاه الخليفة الحفصي إلى تونس سنة (758 هـ) ، وأقام هناك إلى أن توفي سنة (760 هـ - 1358 م)[1].

8. أبو عبد الله محمد بن أحمد الزليتني

من علماء مدينة طرابلس المشهورين بالنسك والصلاح والورع . هاجر إلى مدينة تونس فقرأ على شيخها ابن عرفه[2] حتى مات بها سنة (808 هـ - 1405 م) [3] .

9. أحمد عبد الرحمن بن موسى الزليطني (حلولو)

الفقيه الأصولي الحافظ لفروع المذهب ، ولد ببلدة زليطن الساحلية ورحل إلى تونس في طلب العلم ثم رجع إلى طرابلس وتولى بها القضاء ، ثم عزل عنه ورجع إلى تونس ، وأسندت إليه مشيخة المدارس ، وبقي بها حتى وفاته سنة (898 هـ - 1492 م) [4] .

10. إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي

أحد علماء الجبل الغربي المشهورين ، كان ينتقل بين مدن الجبل مدرسا وداعيا، ثم قصد مدينة طرابلس ، فلم يهنأ بها حتى أودعه صاحبها السجن ، بسبب حسد فقهاء طرابلس له وافترائهم عليه عند الحاكم ، ومن سجنه الذي كان فيه كتب قصيدة مدح فيها ابن مكي صاحب قابس ، فتشفع فيه عند حاكم طرابلس ، فأطلق سراحه ، واتجه إلى جزيرة جربة ونزل بجامعها الكبير ،

(1) الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ص 28 .
(2) محمد بن محمد بن عرفة الورغمي المولود بتونس سنة (716 هـ - 1316 م) عالم في القراءات والنحو والمنطق والفقه وهو من رؤساء العلوم في القرن الثامن الهجري ، توفي سنة (803 هـ - 1400 م) له الكثير من المؤلفات في الدراسات الإسلامية .
الزركلي: مصدر سابق ج 7 ص 115 وما بعدها .
(3) النائب الأنصاري : مصدر سابق ، ص ص 161- 162 .
(4) الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ص ص 37 - 38 .

فتلقاه علماء جربة بأحسن لقاء ، واحتشد عليه الطلبة من كل مكان ، وكان يقرأ ويصنف في المجلس الواحد في فنون الشعر ، والنحو ، والفقه . وبقي في جربة حتى توفي سنة (750 هـ - 1349 م) (1) .

11.أبو العباس بدر الدين أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي

من علماء الجبل الغربي في الفقه واللغة ، سافر إلى تونس طلبا للعلم ، وعندما تحصل على مبتغاه رجع إلى مسقط رأسه عالما ومعلما . توفي سنة (928 هـ - 1522 م) (2) .

12.عبد السلام بن سليم بن محمد المخزومي القرشي

العالم العابد والصوفي المجذوب في حب الله تعالى ، حفظ القرآن الكريم وتفنن في الفقه والنحو والتوحيد والمنطق ، أخذ العلم عن شيوخ عصره حتى صار إمام وقته في العلوم الإسلامية ، تعرض للاضطهاد من بعض الفقهاء والحكام ، فرحل عن مسقط رأسه زليطن ، وذهب إلى جبل زغوان بتونس ، ومنها رجع إلى زليطن ، وأخرج منها ، وذهب إلى ساحل الأحامد ، وأخرج منها ، وذهب إلى مدينة طرابلس وأقام بجامع الناقة ، وأخرج منها بأمر من الوالي في ذلك الوقت ، وذهب إلى غريان فأخرج منها ، وذهب إلى قلعة سوف الجين ومكث فيها سبع سنين ، ثم انتقل إلى تاورغاء ثم إلى مصراته ومنها إلى مسقط رأسه زليطن . توفي سنة (981 هـ - 1573 م) (3) .

---

(1) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، بيروت : دار العرب الإسلامي 1982 ج 2 ص 72 .

(2) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ، كلية الآداب : الجامعة الليبية 1970 ، ص ص 159 - 160 .

(3) الطاهر الزاوي : أعلام ليبيا ص 161 وما بعدها .

13.عمر بن عبد الله بن محمد بن حمودة (المعروف بابن جحا)

من علماء طرابلس ، حفظ القرآن الكريم وقرأ الفقه والنحو والتوحيد والتصوف، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو من تلامذة الشيخ عبد السلام الأسمر ، أخذ عنه الشيخ كريم الدين البرموني [1] علومه ، وكان يحفظ حكم ابن عطاء الله [2] ، هاجر إلى تونس واستقر بها . ولد سنة (902 هـ - 1496 م) وتوفي ببلدة المنستير سنة (999 هـ - 1590 م) [3] .

14.عبد الرحمن الغرياني الطرابلسي (أبو زيد)

لم تسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن هذا الشيخ سوى ما ذكره الأستاذ الطاهر الزاوي من أنه من علماء طرابلس هاجر إلى تونس وأخذ عن علمائها ، وقد مدحه الشيخ حلولو وقال بأن له معرفة بالفقه ، ولم يذكر لنا تاريخ وفاته سوى أنه أخذ علومه من تلاميذ الشيخ بن عرفة [4] الورغمي [5] ، وبما أن الشيخ ابن عرفة من علماء القرن الثامن الهجري فإن الشيخ عبد الرحمن قد عاش حياته في العهد الحفصي .

نتائج تلك الهجرة :

من أهم نتائج هجرة علمائنا إلى تونس الآتي :

(1) كريم الدين عبد الكريم البرموني المصراتي ، الإمام والمحدث الصوفي ، من أعيان مدينة مصراتة الليبية ، رحل إلى مصر ، ثم سافر إلى مكة للحج . كان حيا سنة (998 هـ - 1598 م) .
محمد بن محمد بن مخلوف : مصدر سابق ، ص281 .

(2) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطا الله الإسكندري ، متصوف شاذلي ، من العلماء ، له تصانيف منها : الحكم العطائية ، وتاج العروس ، ولطائف المنن ، توفي بالقاهرة سنة (709 هـ - 1309 م) .
الزركلي مصدر سابق ، ج1 ، ص ص 221- 222 .

(3) أعلام ليبيا : الطاهر الزاوي ، ص 228 .

(4) محمد بن محمد بن عرفة الورغمي ، إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره له الكثير من المؤلفات منها : المختصر الكبير في فقه المالكية ، والمختصر الشامل في التوحيد ، والمبسوط في الفقه وغيرها ، ولد سنة (716 هـ - 1316 م) وتوفي بتونس سنة (803 هـ - 1400 م) .
الزركلي : الأعلام ،ج7 ، ص 47 .

(5) الطاهر الزاوي :أعلام ليبيا ص 167 .

1. خلو مدينة طرابلس في عهدها الحفصي من أشهر علمائها ، مما تسبب في حرمانها من نشاط علمي مميز ، بسبب عدم قدرتها على الحفاظ عليهم ، وعدم قدرتها على جذب العلماء من مختلف المدن الليبية الأخرى ، من قبل حكامها على امتداد تاريخها الحفصي.
2. خلو الكثير من المؤسسات الثقافية في طرابلس من مساجد وزوايا ورباطات من مشاهير العلماء ، وحرمان تلك المؤسسات من إشعاعهم العلمي .
3. إن ما وصلنا من تراث ثقافي ليبي لا يعد كل إنتاجها لأن المدن الليبية وعلى رأسها مدينة طرابلس قد تعرضت في العهد الحفصي للكثير من الكوارث والاضطرابات السياسية ، والتي أهمها هجرة العلماء الطرابلسيين إلى تونس وغيرها من المدن الأخرى ، وقد تسبب هذا العامل وغيره من العوامل الأخرى في ضياع أكثر مؤلفات أولئك العلماء ، وانقطاع أخبارهم إلا ما ندر في مصادر مغربية ومشرقية متفرقة .

أما في الجانب الآخر فقد حظيت مدينة تونس بتوافد أولئك العلماء إليها ، فزاد ذلك من توهج الحركة العلمية فيها ، وإدارة مؤسسات الدولة الحفصية الثقافية بعلماء أكفاء، حتى أصبحت مدينة تونس بفضلهم مع غيرهم قبلة طلاب العلم من جميع المدن والبلدان .

إن أهم نتيجة توصلنا إليها في هذا البحث المتواضع هي كيفية المحافظة على علمائنا في الوقت الحاضر ، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من إمكانيات مادية ومعنوية حتى نستطيع الاحتفاظ بهم ، ونحول بذلك بينهم وبين الهجرة إلى بلدان أخرى ، ولا نكرر بذلك المأساة التي تعرضت لها مدينة طرابلس وغيرها من المدن الليبية الأخرى.

ولعموم الفائدة يجب أن نذكر أن هجرة العلماء الطرابلسيين من مدينة طرابلس إلى مدينة تونس لم تكن مقصورة على العهد الحفصي فقط ، فقد ذكرت لنا كتب التراجم التاريخية أن العديد من علماء طرابلس على امتداد التاريخ الإسلامي ، وخصوصا في العهد التركي وفترة الاستعمار الإيطالي ، قد هاجروا إلى تونس وغيرها من الدول العربية والإسلامية مثل : مصر ، والحجاز ، وإستانبول ، ناشرين إشعاعهم العلمي في كل مكان وصلوا إليه ، وهذا يدل دلالة أكيدة على أن صعوبة ونفقات الهجرة في ذلك الوقت لم تكن حائلا بين علمائنا وبين سعيهم للحصول على الأمان والتقدير والمعرفة .